مجلة
مجمع اللغة العربية بدمشق
« مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً »

ذي الحجة سنة ١٣٩٣ هـ كانون الثاني « يناير » سنة ١٩٧٤ م

خواطر عن الدكتور طه حسين

الأستاذ شفيق جبري

قمت من النوم يوم الاثنين في ٢٩ تشرين الأول سنة ١٩٧٣ فأصغيت إلى إذاعة « لندن » فسمعت المذيع ينعي الدكتور طه حسين ؛ وقد بلغ من العمر أربعاً وثمانين سنة، فلا أبالغ إذا قلت إنني اضطربت بعض الاضطراب، فالإنسان إذا كبر وسمع ذكر الموت فلا بدّ له من أن يبلغ القلق منه مبلغاً ولو يسيراً .

سمعت نعي الدكتور طه حسين ، فسألت الله تعالى أن يدخله في رحمته الواسعة ، وقد كانت صحته قد ساءت من سنين ، كان صوته ـ إذا تكلّم أو حاضر أو أذاع حديثاً ـ يأخذ بمجامع القلوب، حتّى إن إذاعة «لندن» قالت مرّة: إن صوته لا يعدله صوت من حيث الحسن ، ولكن المرّة الأخيرة التي سمعته

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيما كان صوته ضعيفاً ، متهدّجاً ، وأذكر أنّ حديثه في الإذاعة كان موضوعه المجدّدين في الأدب ؛ الذين لم يكن أسلوب تجديدهم عربياً ولا أعجمياً .

لقد جلست مع المرحوم الدكتور طه حسين بعض المجالس ، فأحببت في هذا المقال الوجيز أن أدوّن جملة من الخواطر ، بقيت في ذهني من تلك المجالس. لم أسمعه في مجلس من مجالسه يقذف بلفظة نابية عن الذوق والأدب ، فقد كان مهذّب الألفاظ ، وكأن هذا التهذيب إنما هو صورة تهذيب لفنه ، ولقد جالست شيخاً من شيوخ الأدب في القاهرة ، فكان إذا غضب على فلان قال : فلان ابن كذا . . وابن كذا ؛ فإنّ أشباه هذه الألفاظ غير المألوفة في المجالس الرفيعة ؛ لم تجر على لسان الدكتور طه حسين .

ومن تهذيبه أنه كان في بعض الأحيان إذا استُغضب ضبط نفسه ، فلا تجمح به أعصابه ، فقد كنّا مرّة في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب في القاهرة ، وكان موضوع الجلسة ترشيح الدكتور طه حسين لجائزة الآداب ، فغضب المرحوم الأستاذ العقّاد أشدّ الغضب ، وثار أعنف ثورة ، وأخذ يثني على منزلته في الأدب ، وعلى فضل كتبه ، وكأنّه كان يريد أن يرشّح للجائزة قبل غيره ، وهو ـ ولا ريب في ذلك ـ يستحقّها كما يستحقها الدكتور طه حسين ، ولكن الدكتور طه قد ضبط نفسه في هذا الغضب وهذه الثورة ، ولم يقل شيئاً ، وإنما قال : أعطوه الجائزة قبلي وخلص . . . وانتهت الجلسة بترشيح الدكتور طه حسين لجائزة الآداب .

وعلى الرغم من تهذيب الدكتور طه حسين ومن وقاره ؛ كان يميل في بعض الأحيان إلى المزح ، إلاّ أن مزحه كان لا يخلو من رقّة ، وكان لا يمازح إلاّ من كان يستأنس به . أذكر أني زرته بعض السنين في داره في الزمالك ، وكان في جملة الزوار الأستاذ توفيق دياب ، ويظهر أنه كانت بين الدكتور طه والأستاذ دياب صلة قوية ، قال الأستاذ دياب : يا دكتور ؛ عثرت اليوم على لفظتين عاميتين وأصلهما فصيح ، فقال الدكتور طه : ماهما ؟ قال الأستاذ دياب : القهقهة والهبالة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فقال الدكتور طه : نأخذ القهقهة ونترك لك الهبالة ،فكان ارتياح الأستاذتوفيق دياب إلى هذه المزحة أشدّ من ارتياح أهل المجلس .

إلاّ أنّ الدكتور طه حسين، على الرغم من ميله إلى المزح في بعض الأوقات، كان يهتمّ بإظهار نفوذ أمره ؛ إذا أُلقي اليه أمر من الأمور . لقد شعرت بهذا الاهتمام في الجامعة العربية ، وكنّا في لجنة رئيسها الدكتور طه ، فقد كان قوياً في كلامه ؛ لا يريد أن يظهر عليه أثر الضعف ، فكأنه كان شديد الثقة بنفسه ، فقد دعاني مرّة إلى الغداء في نادي محمد علي في القاهرة ،فقلت له في أثناء الطعام: يا دكتور ؛ إذا رجعت إلى طفولتك الأولى فهل تغيّر شيئاً من حياتك؟ فقال: إذا رجعت إلى طفولتي الأولى فلن أغيّر شيئاً من حياتي،بل أعيش العيشة نفسها التي عشتها من كل الوجوه . وهذا كلام الواثق بأسلوب حياته وعيشته ، المعتقد أن ما عمله في حياته إنما هو حسن ؛ لايحتاج إلى شيء من التعديل والتغيير ، ولا شك في أن كل واحدٍ منّا اذا رجع الى طفولته الأولى ؛ فلا بد له من أن يغير شيئاً من أساليب حياته كان لايرضى عنه ، أو كان يرى أن غيره من الأساليب إنما هو أفضل منه . ـ

كان الدكتور طه حسين رجل سياسة ، وأعني بالسياسة في هـــذا المقام المداراة، فقد كان رجل مداراة ، فلما قدم في مهرجان أبي العلاء المعري ؛ فقال في جملة خطبته ـ على ماأذكر ـ : إن الذي يقدم دمشق ؛ لايقول في حكومتها ما قاله أبو العلاء في رجال السلطان في أيامه ، إنه لايقول : ظلموا الرعية ... واستشهد بأبيات أبي العلاء المشهورة في هذا المعنى . فلا شك في أن قولاً مثل هذا القول ؛ قد أرضى الحكومة في تلك الأيام ، وإن كانت الحكومات في أي زمن من الأزمان لاتخلو من معارضين مخالفين .

كان ـ رحمه الله ـ إذا سمع معنى في شعر من الأشعار ، يخفّف من مصيبته في نظره ؛ يهتزّ كل الاهتزاز ، فقد ألقيت في مهرجان أبي العلاء المعري في دمشق قصيدة قلت فيها مشيراً الى أبي العلاء :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لم يَضِره فقدُ النواظر فالقلـ ـب بصير تفتّحت أجفانُهْ
قد يرى المرء بالفَطانة ما ليـ ـس تراه على النوى أعيانُهْ
كم بصيرٍ أعمى الجَنان إذا أمّ سبيلًا ضلّ السبيلَ جَنانُهْ

ولما فرغت من إنشاد هذه الأبيات؛ وقعت عيني على الدكتور طه، فرأيت أن وجهه قد احمرّ من الطرب، وأخذ يهز رأسه، فكأنما يعجبه أن يقال: كل صحيح العين ليس بصحيح القلب، وهـذا معنى صادف هوى في فؤاده، فقد حرمه الله تعالى نعمة العين؛ ولكنه لم يحرمه نعمة رؤية القلب.

وإذا أحببت أن أختم هذه الخواطر؛ فاني أختمها بحديث جرى بيني وبين الدكتور طه في فندق «سان جورج» في بيروت، قال لي ـ رحمه الله ـ: ماهي أخباركم؟ قلت له: إن الأستاذ الرئيس محمد كرد علي قد فرغ من جزء من أجزاء مذكراته الأربعة، وقد تعرض فيـــه لطائفة من أساتذة مصر، ولم يستثنِ غيرك، فسرّ كثيراً بهذا الاستثناء، وبان السرور على وجهه، ولكنه لم ينطق بشيء.

إن الكلام على الدكتور طه حسين مديد النَفَس، ولكني اقتصرت على طائفة من الخواطر؛ بقيت في نفسي من مجالسه. أما منزلته الرفيعة في الأدب؛ فلا شك في أنها ستكون موضوع مباحث غير قليلة، يخوض فيها فريق من الكتّاب. إن اسلوبه يشبه جدولاً يجري بين حدائق غلبٍ، فتلذّ الأذن خريرَه دون أن يزعجها الضجيج، وتلذّ العينُ هذا الصفاء دون أن يتعبها التعقيد، فيصل الذهن الى عمق هذا الجدول الصافي، فيأخذ من اللآلىء المنثورة فيه دون شيء من الجهد.

رحم الله الدكتور طه حسين أوسع الرحمات.

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net